كتاب جديد عن خيري شلبي:

احد العارفين بأسرار الطبقات الدنيا في المجتمع المصري والمعبّر الروائي عنها

القاهرة ـ «القدس العربي»
ـ من محمود قرني:

صدر عن سلسلة كتابات نقدية التي تصدرها الهيئة العامة لقصور الثقافة كتاب الكاتب والناقد «محمد الفارس» الذي يحمل عنوان «الرؤية الإبداعية في أدب خيري شلبي».

ينقسم الكتاب إلى قسمين أساسيين أولهما «جدلية المضمون» وثانيهما «جدلية الأسلوب».

أما جدلية المضمون فيتناول خلالها الباحث مراحل الكتابة الأولى لدى خيري شلبي والتي تدور حول ما اسماه نسج آليات التراث الشعبي من خلال السرد ويدلل على ذلك بنماذج من مجموعة السنيورة الصادرة عام 1974ويتناول خلالها طقوس الموت والمزج بين الفانتازيا والواقع، ثم يتناول في الفصل الثاني من هذا الباب «الاغتراب والموت بالمجان» ونموذجه رواية «الأوباش» 1987 وخلال هذا الباب يتناول المؤلف موضوع «الترحيلة» في الأدب العربي، ويقول انه عند خيري شلبي تعبير عن التيار الوجودي حيث الاغتراب واللا انتماء، وفي الفصل الثالث يتناول المجموعة القصصية «صاحب السعادة اللص» الصادرة في تشرين الاول (أكتوبر) 1981ويأتي هذا الفصل تحت عنوان الطوفان، وفي الفصل الرابع أتى تحت عنوان «في الصدور كنوز» يتناول «صياد اللولي، سونتا الأمل» 1982ويشير فيها إلى تأثير خيري شلبي بحكايات وعوالم ألف ليلة لاسيما في «السنيورة» ورحلات الطرشجي، والشطار، ففي رحلات الطرشجي الحلوجي 1983 يشير عن الفارس إلى أنها تقوم على مساحات واسعة من الخيال والأسطورة وتحطم الفواصل بين الأزمنة والأمكنة وتغوص في مراحل تاريخية مختلفة لا سيما في قاهرة المعز لدين الله الفاطمي، ويبدو بحث ودأب المؤلف خلف أبعاد شخصياته شديدة المصرية، وكيف عاشت منذ عصور ما قبل التاريخ حتى عصرنا الحالي دون أن تباد رغم مرور حضارات مختلفة ودول عديدة، وتبقى هذه الشخصية كبقاء النيل، وفي وقفته المطولة أمام شخصيات الطرشجي الحلوجي ينقل الفارس عن خيري شلبي أنها «مزاج شعبي خالص وتحفل بالتناقضات التي ربما أضفت على هذه الشخصية كثيرا من الطيبة والبراءة والبلاهة ولكنها في النهاية تقطع بشرف ووطنية، كما تعكس أيضا قدرته على النضال والكفاح ضد ظالميه وناهبيه، ولكنه نضال وكفاح على طريقته الخاصة، التي ربما اتخذت شكلا سلبيا، وهي في الواقع تخفي إيجابية حادة».

ويصنف المؤلف محمد الفارس إلى ذلك قوله إن هذا الاهتمام بكل تاريخ مصر بكل تناقضاته وأهواله وفظائعه يتكرر أيضا في «العراوي» لأن كل تناقضات التاريخ بعصوره المختلفة تجدها داخله في نسيج هذه الشخصية المصرية، فعنصر الزمان متوافر فيها، مثلما توفر فيها عنصر المكان.

ويرى المؤلف أن اشتراك المقريزي وظهوره واختفاءه داخل النص تكنيك يستخدمه خيري شلبي في رحلات الطرشجي، لتقديم ما نستطيع تسميته بالأدب الملحمي، الذي يكسر حدة الإيهام، والاندماج في الدراما معتمدا على هذا الكسر باستخدام عنصر الفانتازيا، فالتاريخ الواقعي أو الوثائقي الذي في كتب المؤرخين ينقله المؤلف إلى عمل قصص، ويكسر حدة الإيهام، بإيقاظ المتلقي على غرائبية الواقع المتفوق على التخيل.

وفي الفصل السادس الذي جاء تحت عنوان «لعله في الغيب يعرف ما جرى» يتناول مجموعة «المنحنى الخطر» الصادرة عام 1983 ويقول محمد الفارس إن شلبي في هذه المجموعة كان حريصا على اثبات تاريخ كل قصة ماعدا الالتحاق بالحياد والاضمحلال، وحجران بالصفاة، أما بقية القصص فتتراوح بين 1964، 1980، ثم يتناول المؤلف كل قصة من قصص المجموعة على حدة، وفي الفصل السابع الذي أتى تحت عنوان «السيرة الأزرقية» يتناول الكاتب رواية «الشطار» الصادرة عام 1985 ويبدأ حديثه بالقول: لم تزل مملكة الشطار والعيارين واسعة، ولم تزل تغوص فيها الى أعمق اعماقها، وفي هذه المرة يكون الراوي كلبا، وليس طفلا، وحتى في عالم الكلاب، هناك الكلب الذي له صاحب يؤويه ويرعاه، وإن كان توفيق الحكيم، قد جعل من حماره فيلسوفا بإطراقه وتأمله وأذنيه الطويلتين المسدلتين، فإن خيري شلبي في هذه الرواية قد جعل من قلبه فيلسوفا برؤياه وحكمته عن الناس والحياة، في جو أسطوري مغلف بالفانتازيا. ويتناول الفارس رواية «العراوي» 1986، ويرى أن شلبي يحطم فيها الحاجز الذي يفصل بين الكاتب والقارئ حيث شاعر السامر يحكي للسامرين احدى السير أو الملاحم من على المقابر ويحفظ الكثير من أشعار الأقدمين، ثم يتناول المؤلف رواية «فرعان من الصبار» التي تنقسم إلى جزأين أولهما «اللحن المميز» وثانيهما «الغنوة» ويقدم من خلالها المؤلف صورة الموت وطقوسه ثم يناقش رواية الوتد، وفي المرحلة الثانية التي يتناولها المؤلف لدى خيري شلبي التي يطلق عليها «الغرائبية» يتناول عدة أعمال للتمثيل على هذه الغرائبية مثل موت عباءة 1993، الدساس 1996 منامات عم أحمد السماك 1991، صهاريج اللؤلؤة 2002، ثم ينتقل المؤلف إلى القسم الثاني من دراسته التي تحمل عنوان جدلية الاسلوب ويقول الفارس عن هذه المرحلة:

«نقول بجدلية الاسلوب، حيث ينبغي أن يتسق الشكل الخارجي مع الأفكار التي تحملها الرؤيا الابداعية لأي فنان في أعماله الفنية وأن يتسق الاسلوب مع مكوناته وأجزائه في تناغم منتظم.

خيري شلبي

ويضيف أن بداية ظهور مصطلح الرؤيا الابداعية في كتابات مارسيل بروست وآخرين محاولة لتحويل المصطلح الى منهج نقدي، من أجل أن يشترك المتذوق والناقد، مع الأديب بالاحتفال بالحياة، بالرغبة والمحاولة في تطورها وتقدمها، بالسباحة ضد التيار، بالكي بنار الفن في حدائق الحكمة، بالمسؤولية والحرية والاختيار.

ثم يعود المؤلف الى أدب خيري شلبي فيقول: نجد أن أدبه يقوم على توظيف الفلكلور، أو ما ارتضى مجمع اللغة العربية تسميته توظيف الفلكلور، أو ما ارتضى مجمع اللغة العربية تسميته بالمأثورات الشعبية، ولأن الثقافة الشعبية المصرية عاشت على مر العصور، تجمع المصرية القديمة وما تلاها من ثقافات، فإن المأثورات الشعبية أو الفلكلور أو اللون الشعبي «الزجل» جزء من هذه الحماية، وهو ما يبدو أنه المرجعية وراء استخدام شلبي للزجل بل الإكثار منه كذلك استخدامه للكثير من الدلالات الصوتية في رواية الأوباش وفي الوتد وفي «فرعان من الصبار» ويرى المؤلف أن الصوت لدى خيري شلبي يتحول إلى إشارة ما دامت اللغة تحمل دلالات صوتية تكتب بنفس طريقة نطقها، وهذه الإشارة في الكلمة أو الإشارات في تعبير ما، إنما هي في الحقيقة تحمل قدرا من البيانات والتكثيف».

ويؤكد محمد الفارس أن اللغة لدى خيري شلبي هي لغة العامة على اختلاف مشاربهم فهي لا تدعي التسامي ولا تقع في السوقية، ثم يتناول المؤلف بعد ذلك مفهوم الحكمة في رواية الشطار وعدد آخر من الروايات وكذلك مفاهيم مثل الاغتراب والتهكم والطقوس والشعائر.

يقع الكتاب في 424 صفحة من القطع المتوسط، ويترأس تحرير سلسلة كتابات نقدية الدكتور محمد حسن عبدالله أما مدير تحريرها فهو الدكتور مصطفى الضبع.

الروائي العراقي برهان الخطيب:

هناك شبح يمنع نشر رواياتي!

ستوكهولم ـ «القدس العربي»:

■ نشرت من روايتك الجديدة (على تخوم الألفين) فصولا في الصحافة، أعلن أكثر من مرة عن قرب صدورها، وفي كل مرة كانت الرواية تحتجب. ما القضية؟ لم تنشر رواية منذ ست سنوات..

■ يبدو لي أن ثمة شبحا يطارد رواياتي لصادرتها، وربما يطاردني، يعيق نشر ما أكتبه، لأسباب خاصة بأشباح لا أؤمن بها. حين جئت العراق خريف عام 2003 اقترح صاحب دار نشر معروفة طبع احدى رواياتي في الحال، ظهرت مصافحة الاتفاق بالتلفزيون السويدي، اجتمع الرجل بعد حين بمسؤول ثقافة عراقي، اتفقا على نشر أعمال مشتركة، روايتي استبعدت بحجة واهية: لم يتمكنوا من فتح ملف الرواية. وهي مكتوبة ببرنامج وورد المعروف. انعقد الأمل على منشورات وزارة الثقافة نفسها، ثم تبدد، وجهوا لي دعوة للمشاركة بمؤتمر ثقافي في بغداد سافرت حينها الى القاهرة. أخيرا تحمس مسؤول دار نشر معروفة في الشام لاصدار (على تخوم الألفين) وقام فنان بوضع الرسوم والغلاف ثم أوقف الطبع في اللحظة الأخيرة. قبل ذلك تحمس ناشر (ألماني) شعاره كما يبدو القافلة تسير ولا يهمها صراخ المؤلفين: هات الرواية أطبعها في ثلاثة أيام، أرسلتها اليه، الثلاثة أيام أصبحت سنتين، بعدها اختفى. قبله ناشر لندني: اعطني رقم حسابك لأحول لك المكافأة عن روايتك، صادرة قريبا، كنت أعرف لن يفعل، أعطيته الرقم رغم ذلك، اختفى أيضا. هذه طريقة مجانية طبعا للسطو على عقل كاتب، دعهم يتغذون من عقولنا، يسمنون بها، هنيئا لهم، هذا بعض هدفي من الكتابة على أية حال.

ما موضوع (على تخوم الألفين)؟ عراقي يعود الى وطنه بعد 2003 يصطدم بوضع جديد قديم. مَن لا يريد نشر هذه الرواية؟ وهل هو مؤثر الى درجة منع الرواية في أكثر من بلد عن الصدور دون الاعلان عن ذلك؟ يبدو هو مؤثرا فعلا، شبحيا، والاّ ما رأينا تجمعات ثقافية عراقية تظهر وتستنجد لانقاذ الثقافة العراقية، لم أنضم لأي منها حاليا، لايماني بأن العمل الابداعي الذي أمارسه فردي، ثقافي أوسع تخصصا، حين يضيق الابداع ننتقل الى الثقافي، يضيق هذا الى السياسي، يضيق هذا ترى العراك قائما في العراق، وغيره الآن.

■ ما موضوع (على تخوم الألفين) بشيء من تفصيل؟

■ القصة بسيطة، الشيطان في التفاصيل قيل، تزور بعثة تلفزيونية العراق بعد 2003 حب بين المراسل الأجنبي وقريبة الشاعر العراقي مع البعثة، عائدون من الخارج، وطنيون أقحاح، متدينون، لواء سابق في الجيش، النماذج التي نراها اليوم فاعلة في العراق، تتفاعل في حدث ديناميكي يكشف عن ظروف استثنائية وحب غير معتاد على خلفية أفق دام، نقرأ عن كل هذا في الأخبار اليومية طبعا، نتجاوزه عادة، حين نقرأ عنه في رواية تؤثر في نمونا النفسي، تبقى في تركيبنا، من هنا خطورة الرواية والحذر في التعامل معها. يروج للشعر كأنه ديانة العرب الجديدة، يهملون الرواية، كأن هذا المسعى متعمد في منطقتنا لتمييع الوعي بدل بلورته روائيا في الأقل، وقد يتبنى هذا أشخاص مؤثرون حقا مؤمنون بالديمقراطية قولا، يخربونها فعلا، بطريقتهم الخاصة، بفهم مبتسر للتغيير وآلياته التي أفهمها الفن لا الابتذال.

■ يعقد في عمان مؤتمر ثقافي عراقي لماذا لم تحضره؟

■ لم أدع اليه ببساطة رغم قولهم أنهم دعوا 700 مثقف اليه. من هم وكيف؟ لا أحد يعرف؟ واذا قلت لا يعرفك المشرف على المؤتمر أو المهرجان أقول بل يعرفني جيدا، هو من معارفي القدامى من الستينيات، عام 1968 أجرى معي مقابلة لصحيفة الجمهورية وفي عام 2002 اتصل معي من جدة وطلب مني المشاركة في برنامج اذاعة عراقية معارضة، وعد مائة دولار عن الحلقة الواحدة، أنا لا أطالب عادة بمكافأة نشر، هو الذي اقترح، سجل لي عشر حلقات في النتيجة أرسل مكافأة حلقة ونصف، كيف حسبها، العلم عند محاسبه، لم يكن عندي وقت للأسف لارجاعها له. بعد هذا سمعت عاد الى بغداد في 2003 وهرب بعد حين منها وراح يبحث عن عمل في عمان وها هو يقود 700 مثقف من جديد. أتمنى له النجاح ولكن..

■ أحداث الشرق الأوسط اليوم تضع منطقتنا أمام احتمالات حرب واسعة، ما تعليقك؟

■ أي حرب يدفع ثمنها الشعب حاضرا ومستقبلا، السياسي يحصل منها على مكسب أو خزي حسب حظه في المقامرة، ليس منصفا طبعا الخلط بين المعتدي والمعتدى عليه، لكن الانصاف هنا يسبب المزيد من الاستقطاب، التعويل على ايجاد حل سلمي يوفر للجميع خسائر، حرصا على النفس والأهل قبل كل شيء، حجة تحرير جنديين حفزت اسرائيل على شن حرب غير منطقية بحساب لاعب شطرنج يعرف لا يقامر بلعبة من اجل جندي، الاّ اذا أراد قلب الطاولة، اصابة البارجة الاسرائيلية وحيفا نذير، لغة المدافع فشلت في ضمان الاستقرار وتفشل، الكلمة هي البدء والنهاية، لكل طرف حق في الدفاع عن نفسه طبعا، القوة تغوي لاستعمالها، العقل لايجاد حلول، لا لاشباع نزعة انتقامية. فعل اسرائيل أدين من بعض قادة الغرب، وهو برأيي يسيء الى الحضارة الغربية عموما، يسيء للديمقراطية وعملية بنائها المزعومة في العراق. الشارع والحكم في المنطقة العربية ضد العدوان ولسوف يؤجج المزيد من الكراهية للداعمة خاصة، وهذا يجرح أصدقاء الغرب في المنطقة ويدفعهم للانتقاد أيضا، ما يؤدي لزيادة التطرف. العدوان على لبنان يسيء معنويا وماديا للجميع، تحييد حزب الله لا يتم بالقوة، امتداده في المنطقة العربية كلها، ازاحة نصر الله قد تشبه ازاحة غيفارا وصدام والزرقاوي، إنما يبقى التغيير لا يتم من فوق، هذا الدرس ماثل في العراق. سياسة الحروب الموسمية ضد المعترضين غير فعالة في عهد يراد فيه بناء ديمقراطية، حل المشكلة بالحوار، على أساس اقتناع طرف بلا جدوى حلم اقامة دولة غير متسقة مع المجتمع الدولي في عهد العولمة، مقابل السماح للاسلام بدخول اوروبا رسميا كما فعلت بعض دولها، حين سمحت بإقامة مساجد فيها، ينعم مسلموها بالحرية، واليوم اليونان تسمح بذلك، اضافة لضرورة اطلاق سراح السجناء وتنفيذ بقية المطالب. بعض دول المنطقة انجزت ببريسترويكا ناجحة في هدوء، سورية منها، توسيع العدوان نحوها يزيد التطرف ويفاقم المشكلة.

■ ما قضية القصائد التي نشرتها مؤخرا، هل تحولت من الرواية الى الشعر؟ يئست من سرد حكاية العرب وفضلت عليها التغني بحبيبة؟

■ حبيبة الحبيبات تبقى أمة العرب، والتغني بأية حبيبة انما هو تعبير عن انفعال وشكران للشمائل والصفات الحميدة والجمال الباذخ وغيرها من سمات تهبها هذه الأمة لها عن وعي أو غير وعي. الشاغل الوجداني رافد يعبر عن ذاته شعريا أحيانا، من جملة روافد كثيرة تغذي التنوع في رواياتي.

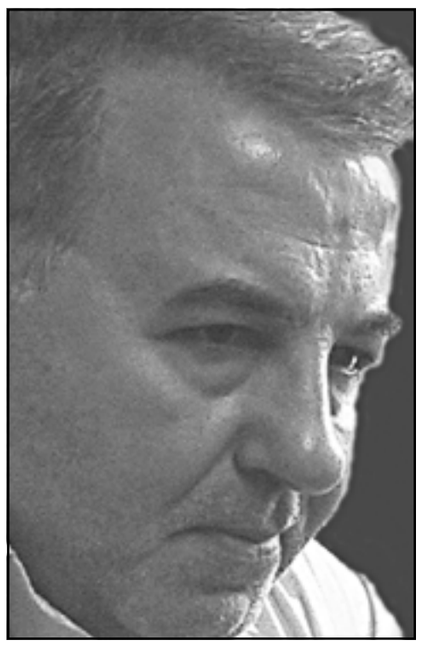
برهان الخطيب

التقاه: جاسم الولائي

قص

المجـــابهة

علي القاسمي*

■ دخلتُ مَنظِّفةُ المنزل عليَّ في مكتبي في الطابق العلوي، دون أن تطرق الباب، وقد ارتعدت فرائصها، وامتقع وجهها، وارتعش جسدها، وارتجفت يداها؛ وقالت بصوت متهدّج وأنفاس متقطّعة:

ـ ثمة... حنش... في البيت.

لم أسمع العبارة بوضوح، أو لأنني أردت أن أتأكّد مما تقول، فسألتُها:

ـ ماذا في البيت؟

رفعت صوتها المرتعش قليلاً، وقالت:

ـ حنش.

كنتُ قبل دخولها بوهلة، أحرّر ـ بمصادفة عجيبة ـ مادة «ح ن ش» في المعجم المدرسي الذي أتولى تأليفه لوزارة التربية، وقد نقلتُ من المصادر الموثوق بها، التعريف التالي:

«حَنَشٌ، جمعه أحْنَاش: حيّةٌ سوداء ليست سامة».

ولهذا ابتسمتُ بشيء من الاستخفاف، وسألتها:

ـ أين؟

قالت، وما زالت أنفاسها متقطعة:

ـ تحت الزربية... في مدخل البيت... التفَّ هناك...

خرجتُ من المكتب، ووقفتُ في أعلى الدرج المفضي إلى مدخل المنزل. تبعتني هي تاركة مسافة أمان كافية. ألقيتُ نظرة على الزربية. لم أرَ الحنش. أضافت السيدة موضحة، وهي ما زالت ترتعد فَرَقاً:

ـ هناك... تحت... الزربية:

فعلاً، لمحتُ انتفاخاً في وسط الزربية.

في تلك اللحظة، خطرَ لي أنّ تلك السيدة المسكينة ليست لغويّة ولا معجميّة، فهي لم تُصب من التعليم الابتدائي إلا اليسير، وأنّ كلمة «حَنَش» في اللهجة المغربيّة العربيّة اسم عام لجميع أنواع الحيّات، وأنّ ما تسميّه هي «حَنَش» قد يكون حيّة خبيثة، أو ثُعباناً سامّاً، أو أفعى خطيرة، أو صلاً من أقتل الأفاعي، أو كوبرا سامّة جداً، أو حتى حيّة تنفخ سمّها في الهواء فتقتل فريستها عن بُعْد.

وهنا شعرتُ في داخلي بنوع من الفزع، بل بهلع شديد، حاولتُ أن أخفيه عن السيدة المرعوبة التي كانت تقف مرتجفة، وهي تصوّب عينيها إليّ، في انتظار أن أفعل شيئاً، كي تعود إلى عملها في الطابق السفلي من المنزل.

لم تكُن لي خبرة سابقة بالحيات، فأنا معجمي بالمهنة، ولم أدرس ما يتعلّق بالأفاعي في الجامعات التي ارتدتُها، ولم أتعلّم شيئاً من وسائل الإسعاف الأوّليّة في المدارس. كلّ ما أعرفه عن الحيات هو ما كنتُ أسمعه في طفولتي في بلدتنا الصغيرة المجاورة للحقول والبساتين. سمعتُ آنذاك أنّ أحدهم لدغه ثعبان سامّ فمات في الحال. وفلاح، كان يعمل في الحقل لدغته أفعى خبيثة في إبهامه، فسلّ خنجره، وبتر تلك الإصبع لئلا يتسرب السمُّ في الدم إلى قلبه فيقتله. وفلاح آخر لدغته حيّة سامة في قدمه فاضطر، في تلك اللحظة، إلى قطع قدمه بالمسحاة التي كانت بيده لينجو من موت مُحقّق. ولكنّها حوادث كنتُ أسمع بها دون أن تكون لي مجابهة فعلية مع أي ثعبان من أي نوع. ولا أعرف كيف أميّز الحية السامة من غير السامة. ولا أملك خنجراً ولا مسحاة.

الحكاية الوحيدة التي سمعتها عن حيّة مسالمة في طفولتي كانت تلك الحكاية التي دأبتْ أمي على ترديدها لجاراتها مراراً وتكراراً. تقول الحكاية إن أمّي توجّهت إلى الرحى في منزلنا ذات صباح لتطحن الحنطة وتعدّ لنا الخبز، فوجدتْ حيّة طويلة وجسدها ملتفّ حول الرحى مرتين أو ثلاثاً، فبادرتها أمي بتلاوة بعض الآيات من القرآن الكريم، فما كان من الحيّة إلا أن انصرفت منسابة خارج الدار. والآن، هل تنفعني قراءة آيات قرآنية على هذا الحنش الكامن تحت الزربية؟

في الحقيقة، أنا سمعت حكاية أمّي عدّة مرات، ولكن لم أرَ تلك الحيّة. كما لم أشاهد أية حيّة أخرى في حياتي. بلى، في ساحة جامع الفناء في مدينة مراكش الرائعة، لمحتُ بعض الحيّات عن بُعد، يتقلّدها الحواة ملفوفة حول أعناقهم مثل قلادة ليُسلّوا بها السيّاح. من المؤكّد أنّ هؤلاء الحواة يعرفون كيف يتعاملون مع الحيّات، ولهم خبرة في اصطيادها، وقلع أنيابها لتكون آمنة، وترويضها. ومع ذلك، كنتُ كلما رأيتهم من بعيد، اقشعرّ بدني وبالغتُ في الابتعاد عن طريقهم. ولكن أين أجد هؤلاء الحواة الآن لمساعدتي؟ بل كيف أستطيع الخروج من المنزل، والحنش متربّص تحت الزربية في الممرّ المفضي إلى الباب؟

التفتُّ إلى السيدة الخائفة، فألفيتها ما زالت واقفة وهي تصوّب نظراتها إليّ، تتوقع مني أن أفعل شيئاً. طبعاً، فأنا صاحب المنزل ولا يوجد غيري فيه.

قلتُ لها كسباً للوقت:

ـ ما طول الحنش؟

قالت: «التفّ بسرعة تحت الزربية. ربما طوله».. ثم مدّت كلتا ذراعيها.

هنا شعرتُ بالخوف يدبّ في أوصالي ويتملّك كياني. فقلتُ لها وَجِلاً:

ـ هل هو غليظ؟

ـ نعم، نعم.

أيقنتُ بأنني مضطر لخوض معركة، لم أختَرها بنفسي، وإنّما فُرِضتْ عليّ. سأخوضها مع عدو خطر، اجتاح داري وقد يقضي عليّ أثناء النوم إذا تركتُه الآن. إذا استطاع هذا الحنش أن يلدغني لدغة سامة، كيف أصل إلى المستشفى، فداري تقع على شاطئ البحر، وهي بعيدة عن المدينة. ومن يحملني إلى المستشفى؟ فهذه السيدة المسكينة لا تعرف قيادة السيارة، وسيارات الأجرة نادراً ما تمر بالقرب من دارنا. هل أستنجد بالحارس الليلي؟ إنه غير موجود الآن، فهو يغادر مكانه عند انتهاء الحراسة في الصباح؟ هل أطلب من المارّة أو الجيران، إن وجدوا، مساعدتي؟ ماذا أقول لهم؟ ألستُ رجلاً؟ والدار داري وليست دارهم. واجبي أن أدافع عنها وأحميها. وعلى كل حال، فلا سبيل إلى الوصول إليهم دون المرور على الزربية التي يختفي تحتها ذلك الحنش اللعين. تُرى، هل سيهاجمني عندما أقترب من الزربية؟ لا شك في أنه سيسمع خطواتي وأنا أنزل الدرَّج، فيتأهب للانقضاض عليّ.

قلتُ للسيدة المسكينة، وهي تنقلّ نظراتها بسرعة بيني وبين الزربية في الممر أسفل الدرج:

ـ راقبيه جيداً لئلا يغيّر مكانه. سأرتدي ملابس سميكة وأعود إليه.

دخلتُ غرفة نومي في الطابق العلوي. لبستُ سروالاً سميكاً وجوارب غليظة. أمضيتُ بعض الوقت في البحث عن قفازات صوفية كنتُ أرتديها قبل شهور أيام الشتاء الشديدة البرد. وجدتها بعد طويلة عندما كنتُ أمارس رياضة ركوب الخيل التي تخليتُ عنها بسبب آلام الظهر التي أصابتني، نزولاً عند نصيحة الطبيب الذي أشار عليّ بالتوقف عن التنس وركوب الخيل، ومزاولة المشي والسباحة فقط. كانت تلك الجزمة في خزانة خشبية لم أفتحها منذ سنين طويلة. ما أن فتحتها حتى قفز منها شيء أرعبني. كان فأراً مذعوراً. لبستُ الجزمة، وتناولتُ عصا طويلة استخدمها في تماريني البدنيّة كلّ صباح. عدتُ إلى حيث تقف السيدة وأنا أقول بشيء من اللوم:

ـ عثرتُ على فأر في الخزانة الخشبية. إن لم يُنظّف هذا المنزل جيداً سيمتلئ بأنواع القوارض والزواحف والثعابين السامة.

بقيت السيدة صامتة. واصلتُ سيري. عزمتُ على المجابهة. سأقتل هذا الثعبان. أو بالأحرى سأقاتله. فأنا لا أعرف إذا كنتُ سأستطيع القضاء عليه، فقد يتمكن هو من لدغي وقتلي بسهولة. كيف يموت الإنسان؟ بأسباب كثيرة، وأحياناً بلا سبب. ربما بلدغة أفعى. هكذا اختارت كيلوبترا أن تموت. والعداء بين الإنسان والحيّة مستحكم منذ أيام السومريين، فقد سرقت الحية نبتة الخلود من جلجامش، ملك أوروك، وقُضِي على الإنسان أن يموت ويموت.

كنتُ قد فكّرتُ أثناء ارتدائي الملابس السميكة في غرفة النوم، أنّ أفضل طريقة لقتل ذلك الثعبان هي الدعس المتكرّر بكلتا قدميّ على الزربية، على أمل أن تصيب ضربات الجزمة رأسه فيموت. أخذتُ أنزل الدرج بخطوات ثابتة تنم عن عزمي على خوض المعركة، ولكن دون إحداث أية ضوضاء. بقيت السيدة الخائفة واقفة في مكانها في أعلى الدرج، وقد اتسعت حدقتا عينيها.

كنتُ على وشك الوصول إلى الدرجة الأخيرة بالقرب من الزربية، وأنا أحمل العصا الطويلة مثل رمح بيدي اليمنى، عندما غيّرت خطتي فجأة. لا بأس، فمشاهير الجنرالات قد غيّروا خططهم أثناء المعركة في ضوء المعطيات المستجدة. فكّرتُ أنه ينبغي أن لا أجازف بالاقتراب كثيراً من الأفعى المختبئة تحت الزربية. الأفضل أن أضربها بالعصا الطويلة وأنا بعيد عنها بمسافة آمنة.

وقفتُ على الدرجة الأخيرة، رفعت العصا بلا ضوضاء، تمنيتُ لو كانت تلك العصا مثل عصا النبي موسى، بحيث تتلقف ذلك الحنش اللعين دون أن اضطر شخصياً لخوض تلك المعركة التي لا أعرف نتائجها.

هويتُ بالعصا بقوة على الجزء المنتفخ من الزربية. فجأة خرج ثعبان من تحتها بسرعة ورأسه مرتفعة في الهواء، متأهبة للضرب وللدغ. كان طوله حوالي الذراع، ورأسه كبيرة مثلثة، ولونه أزرق داكن اقرب إلى السواد. لا بدّ أنه سام. لا أدري لماذا ارتبط السمّ باللون الأزرق في ذهني. رفع الثعبان رأسه في الهواء، ارتد بها إلى الوراء، ولدغ رف المكتبة السفلي الذي جاءت الضربة من جهته (الممر يشتمل في الناحية اليسرى على رفوف مليئة بالكتب). وكرّر تلك الحركة واللدغ عدّة مرات، وفي أماكن مختلفة، كما لو كان أعمى. في تلك اللحظة وفي خضم المعركة، سمعت جرساً يجلجل بطريقة مخيفة خلته صادراً من الثعبان وهو يرفع رأسه في الهواء، لا بدّ أنه من نوع الأفعى ذات الأجراس المرعبة، فازداد قلبي خفقاناً. استمر رنين الجرس، ثم تبين لي أنه صادر من هاتفي المحمول. هذا الهاتف الملعون، يختار أسوأ الأوقات ليرنّ بإلحاح: وأنا أسوق السيارة، وأنا أحاول جاهداً الإجابة على سؤال صعب بعد محاضرة ألقيتُها، أو وأنا في صميم المعركة.

وبارتباك ظاهر، هويتُ بالعصا بضربات متلاحقة على الثعبان. لم تكن تُصيب الثعبان الذي كان يلتوي ويراوغ. ربما أصابت إحدى الضربات ذنبه. فهذه العصا ليست عريضة بما يكفي لتنال منه، فنوع السلاح ذو أثر في كسب المعركة. وفجأة التفتَ هو إلى الخلف وزحف بسرعة إلى الرفّ السفلي واختفى بين الكتب.

في تلك اللحظة شعرت بتحوّل في مشاعري، مثل تحوّلات الضوء عند الغروب. لا أعرف شيئاً عن كيفية نشوء العواطف أو تبدّل الأحاسيس، فليست لي دراية في علم النفس، أو الطب النفسي. كنتُ قد حاولت ذات مرة دراسة كتاب فرويد عن تفسير الأحلام فبدا لي مختلطاً كما لو كان أضغاث أحلام، فانصرفتُ عنه وعن كتب التحليل النفسي الأخرى. كلّ ما أحسستُ به بعد أن هرب الثعبان واختبأ خلف الكتب أنّه، هو الآخر، مذعور مثلي، خائف على حياته؛ وربما كان مثلي لا يريد الدخول في معركة، وإنما اضطر للدفاع عن حياته بعد أن فاجأته ضربة العصا. ربما دخل الدار خطأً دون أن يقصد الأذى. مَن يدري. ولعله مجرّد حية غير سامة. فها هو يهرب ويختبئ طلباً للنجاة. كلانا يطلب النجاة والبقاء والحياة. فشعرت بالرأفة تجاهه.

اغتنمتُ فرصة اختفاء الثعبان خلف الكتب وخلو الممر منه، واتجهتُ قفزاً نحو باب الدار في آخر الممر وفتحته على مصراعيه. لا أدري لم فعلتُ ذلك؟ بكل تأكيد لا لأهرب إذا ما مالت كفّة المعركة إلى غير صالحي، فمن المستحيل أن أتخلى عن الدار للثعبان، فهذه الدار أصبحت الآن هويتي، وعنواني، وحياتي، خاصة بعد أن تقاعدتُ من العمل الرسمي وأخذت أزاول الكتابة والتأليف فيها. لا يمكن أن أترك الثعبان مختفياً بين كتبي التي أستعملها بكثرة. سيلدغني سرعان ما أمدّ يدي لأتناول كتاباً. لعلني فتحتُ الباب آملاً في خروج الثعبان من الدار دون أن أقتله. فقد شعرتُ بنوع من الرحمة في أعماقي، كما ذكرتُ وكأنني أعمل بالحكمة المأثورة: ارحموا مَن/ما في الأرض، يرحمكم مَن في السماء.

عدتُ إلى رفّ الكتب حيث يختفي الثعبان. ومن بُعد كاف يضمن سلامتي، استعملتُ العصا الطويلة لإسقاط الكتب التي يختفي خلفها الثعبان. انكشف مَخبؤه. خرج هذه المرة مصمّماً على خوض المعركة. أنزلتُ بعض الضربات في اتجاهه، ولكن من جهة الدرج وليس من جهة الباب، دون أن أرمي إلى إصابته. توقفتُ للحظة أفكر في اتّباع طريقة أخرى. اغتنم الثعبان فرصة توقّف الضربات. اتجه نحو مصدر الضوء الآتي من فتحة الباب. لم أتبعه حالاً. لا أدري ما إذا كنتُ خائفاً من أن يرتدّ نحوي فيلدغني، أم كنتُ راضياً بخروجه بحيث تكون نتيجة المعركة متكافئة، لا غالب ولا مغلوب. بعد لحظات تعقّبته عن بعد لأتأكد من خروجه، ودون أن أهاجمه بالعصا. خرج من الباب الداخلي. زحف بشكل متقطع: يتوقف بين وهلة وأخرى، ينظر في اتجاهي، ثم ينظر في اتجاه الشارع. قطع الساحة الصغيرة المخصصة لوقوف السيارة نحو الباب الخارجي الخشبي المشبّك. انساب من تحته وأنا أتعقبه عن بُعد. أسرع للاختفاء في مجموعة من الأعشاب النامية على حافة الطريق أمام الدار عند عمود الكهرباء. لا بدّ أنه اختبأ في غار هناك. هويتُ بالعصا بقوة على عمود الضوء محدثاً صوتاً كبيراً، وكأنني أريده أن يختفي في الغار بعيداً عني. انكسرت العصا إلى نصفين قصيرين. رميتهما على الأعشاب، وعدتُ إلى منزلي وأوصدتُ الباب خلفي. وما إن اقتربتُ من الزربية في الممر، حتى فزتُ: كان الثعبان ملتفاً مختبئاً تحتها.

* كاتب عراقي مقيم في المغرب

صدور الأعمال القصصية للقاص خليل قنديل

عمان ـ «القدس العربي»:

صدر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر الأعمال القصصية للقاص الاردني خليل قنديل، ضمت فيها مجموعاته الأربعة: (وشم الحذاء الثقيل 1980)، (الصمت 1990)، (حالات النهار 1995) و(عين تموز 2002).

وتميزت تجربة خليل قنديل القصصية التي تمتد من السبعينيات بقدرته على التقاط الغرائبي عبر توظيف الخرافة والاسطورة والحلم في سرد واقعي يمتزج بسريالية تسترعي التشويق لدى المتلقي، بهذه الرؤية أسس قنديل المشهد القصصي محافظاً على هذه الخصوصية والاختلاف عن الآخرين.

كما يقف المتابع لسرد خليل قنديل عند قدرته على الغوص في العالم السفلي أو الباطن في حياة البشر المنتمين عادة لشريحة الفقراء والمهمشين، ليصل عبر صدق وعمق وبساطة تلك العوالم إلى منطقة يستطيع فيها الكشف والنبش في منطقة الألم الانساني وتحليلها ليخترق الاجتماعي والمسكوت عنه.

يقول الناقد فخري صالح في تقديمه للأعمال القصصية: «تغلب على قصص خليل قنديل الواقعية الخشنة والوصف التفصيلي الدقيق لمشاعر شخصياتها ومونولوجاتها، كما أن القاص، في سياقات أخرى، يعيد سرد الحادثة الواقعية في إطار العجيب والغريب والسوريالي والاقتراب من روح الطبيعة العاصفة المدمرة، ما يذكر بالقصة والرواية القوطيتين ممثلتين بكتابات أبي القصة الأمريكية، وربما في العالم كلّه، إدغار ألن بو.

أضاف صالح: «على هذين المسارين، الواقعية الخشنة والفانتازيا الواقعية، يمكن توزيع قصص خليل قنديل، بدءا من مجموعته الأولى «وشم الحذاء الثقيل»، التي كتبت قصصها خلال فترة السبعينيات من القرن الماضي، وصولا الى مجموعته «عين تموز» التي نشرها عام 2002، وإن كانت قصصها، في معظمها، كتبت خلال تسعينيات القرن الماضي، ويمكن أن نقرأ حركة قصص خليل قنديل، وتطور عوالمها في قصص المجموعة الرابعة والأخيرة حيث يبدو القاص، الذي ينتمي إلى جيل السبعينيات عمراً ورؤية قصصية، وكأنه يقوم في «عين تموز» بتلخيص عوالمه السابقة وتكثيفها».

يشار إلى أن القاص خليل قنديل يعمل في الصحافة الثقافية منذ ثمانينيات القرن الفائت، وهو الآن كاتب وصحافي في صحيفة «الدستور» الأردنية.